واقع المسرح في العراق وآفاق المستقبل

د.سامي عبد الحميد

مقدمة :

يمثل المسرح ثقافة البلد بجميع حقولها - الأدب والشعر والموسيقى والفن التشكيلي والعمارة والعلوم الإنسانية وحتى العلوم الصرفة.

وعندما ينهض المسرح ويتقدم في هذا البلد فمعناه أن ثقافته بأجمعها قد نهضت وتقدمت وأصبح مدعاة لفخر أبنائه.

وعندما تتزايد أعداد مرتادي المسارح ، عدا جمهور المسرح التجاري فهم كثير في كل الأحوال ، وعندما يؤسس المسرح تقاليد راسخة تتوازن فيها عروض المسرح طيلة الموسم عند ذاك يتبلور جمهور متذوق يتزايد عدد أفراده يوماً بعد يوم ويحدث التوازن بين جمهور المسرح التجاري وجمهور المسرح الأصل أو مسرح الدولة. ولعل ابرز التقاليد المسرحية ما يأتي : -

1. اعتماد أسلوب الريبتوار في مسارح الدولة.
2. اعتماد البرنامج المنوع من المسرحيات المحلية والعالمية.
3. إحياء التراث المسرحي وبالأخص نتاجات المؤلفين الأوائل.
4. التزام بالطقس المسرحي واحترام سلوك الحضور.
5. العمل على جعل المسرح ضرورة حياتية.

المسرح في العراق قبل ٢٠٠٣

يعتقد البعض وخصوصاً من اغترب من المسرحيين العراقيين بسبب الظروف القاهرة بأن الفن المسرحي في العراق قد تراجع أيام النظام السابق وانه أصبح مطيعة للسلطة ولكن الحقيقة غير ذلك وهناك دلائل كثيرة على هذا القول. صحيح أن السلطة آن ذاك تريد أن تجر المسرح وكل أوجه الثقافة لصالحها وتخضعه لمبادئها ليروج لتوجهاتها. صحيح أن البعض من المسرحيين اخطر لمجاراتها لا إيماناً بها ولا تزلفا لها بل درءاً للمخاطر التي قد يواجهونها أو بسبب المحاذير التي كانوا يفكرون بها. ولكن الأكثر صحة هو أن العديد من المسرحيات التي قدمت في ذلك الزمن الصعب كانت تغلق من سوط الرقابة وتتحدى السلطة وتتعرض بالنقد ولو بصورة غير مباشرة لتوجهاتها وخصوصاً بما يتعلق بالتسلط والقهر والدخول في حروب مدمرة. كما أن مسرحيات أخرى قد نددت بالتنكر للقيم النبيلة التي سار عليها أبناء الشعب وإحلال قيم أخرى يشوبها النفاق ويكفي أن نذكر عدداً من الأمثلة على ما نقول مسرحيات مثل (النهضة) و(الكفالة) و (الجنة تفتح أبوابها متأخرة) و (طقوس النوم والدم) و (هذيان الذاكرة) و (ملك زمانه) تشهد . وهناك مسرحيات أخرى كثيرة عاشت الواقع المر الذي عاشه شعبنا ومسرحيات أخرى تنبأت بأحداث قادمة مثل (ثورة الزنج) و (انهض أيها القرمطي جاء يومك) و (فضيحة الدجاج الأميركي) والأكثر صحة هو أن مهرجان بغداد للمسرح العربي كان من انجح المهرجانات العربية بوقتها. وان المسرح العراقي حقق شهرة وسمعة طيبة في الأوساط العربية وأصبح منافسا خطيراً للمسارح العربية المتقدمة مثل المسرح التونسي . إن المسرح العراقي حقق انتصارات لامعة في المهرجانات المسرحية العربية وحصل على جوائز عديدة .

لقد استضاف المسرح العراقي عدداً من الفرق المسرحية العربية والأجنبية نذكر فيها فرقة عادل إمام المصرية وفرقة محمد صبحي وفرقة مسرح الرور الالمانية وفرقة من فرنسا قدمت مسرحية (الخنساء).

وفي تلك المرحلة المظلمة أبدع العديد من المؤلفين المسرحيين ومن مخرجيها وممثليها وحتى من المصممين لها ومن المؤلفين نذكر بالأخص (جليل القيسي) و (فلاح شاكر) ومن المخرجين نذكر بالأخص (فاضل خليل) و (صلاح القصب) ومن الممثلين نذكر (فيصل جواد) و (سهير إياد) ومن المصممين نذكر (كاظم حيدر ونجم حيدر) وبالطبع هناك عدد كبير غير ما ذكرت من المبدعين البارزين .

بالمقابل فقد واجهت المسرح العراقي في تلك المرحلة انتقادات نذكر فيها :

١. إلغاء إجازات الفرق الأهلية عام ١٩٦٣.
٢. تأسيس فرق خاصة بالحزب الحاكم تبشر لسياسته.
٣. اتساع رقعة المسرح التجاري وتدني مستويات عروضه ودخول عناصر غريبة إلى الوسط المسرحي . ودخول مستثمرين من خارج الوسط الفني مما أدى إلى تشويه ذائقة الجمهور.
٤. تقلص نشاطات الفرق الخاصة في السنوات الأخيرة بعد أن وصلت إلى أعلى مستوياتها ومنها نشاطات فرق المسرح الفني الحديث والمسرح الشعبي ومسرح اليوم.

لقد اختل التوازن بين ممثل المسرح التجاري وأثره في جذب جمهور واسع وممثل المسرح الأصيل وضعف أثره في جذب الجمهور ما أدى إلى تصاعد الأحداث بضرورة الحد من نشاط المسرح التجاري وتقلصه ولكن العكس هذا الذي حدث وتصاعدت الأصوات بضرورة إسناد المسرح الأصيل مادياً ومعنوياً مما اجبر السلطة على تأسيس (لجنة المسرح العراقي) لإسكات تلك الأصوات:

الابتكارات الكثيرة التي حققها المسرحيون العراقيون في تلك المرحلة وفي ظروف القهر والتعصب والانغلاق والحزب (البيت والسائق) و (وأثره النجم البغدادي) وهل ننسى (الجوفه) التي منعت. وهل ننسى (ثورة الزنج) التي كانت على وشك منعها وهل ننسى ( ) و (جبران) وليف برناردا العام و (ملحمة كلكامش) و (اللجمة) و (رسالة الطير) و (ألف رحلة ورحلة) و (عطيل في المطبخ) وغيرها كثر.

وضع المسرح بعد ٢٠٠٣

مر المسرح العراقي بدورات من النهضة والكبوة .

ينهض في مرحلة من مراحل الزمن حتى تأتيه صفعة أو صفعات لتطرحه جانباً ليبدأ ببناء نفسه من جديد ، فعندما نهض بداية الخمسينيات من القرن الماضي وحتى نهايتها حين جاءت صفعة ٨ شباط المشؤومة ومرة أخرى قام على أقدامه أواسط الستينات ويرتفع بناؤه في السبعينيات وصولاً إلى بداية الثمانينات لتأتيه صفعات الحرب مع إيران. ومع هذا قام وإذا بصفعة الحصار تطرحه وظل يترنح بعد ذلك ويلفظ أنفاسه الأخيرة بعد سقوط النظام حتى تلقى الصفعة الأقوى وما زال يعاني منها ويحاول لملمة أعضائه ليبني نفسه مرة جديدة.

حمداً لله ظلت بناية المسرح الوطني سالمة لم يطلها النهب والتخريب كما حدث لمسرح الرشيد وبناية السينما والمسرح ومسرح بغداد وكما أصبح مسرح الاحتفالات ومسرح المنصور في منطقة الخضراء ، لقد تعرضت دائرة السينما والمسرح ومسرح الرشيد إلى النهب والسلب والتدمير حيث راح العابثون يعبثون بموجوداتها ونهبوا أرضيتها التي أسسها الراحل احمد فياض المفرجي وواصله الباقيان علي حسن وعقيل عبد الحسين ونهبت كامات السيناريو وأجهزة الصوت وغير ذلك من التكنولوجيا الحديثة.

ولأن المسرحيين العراقيين اصلاء ويحبون فنهم وافنوا حياتهم في سبيل رفعته واحرقوا أعصابهم في سبيل استمرارهم ولأنهم كانوا وما زالوا لا يرضون بالقهر والاستبداد والهوان وينشدون الحرية والحياة الأفضل ويلتزمون الحقيقة ويدينون الفساد الفكري والفني والخلقي لذلك تراهم اليوم يواصلون مسيرتهم الشامخة وكانت مجموعة من الشباب سمو أنفسهم (الناجين) قد بدأوا الخطوات الجديدة الأولى حين قدموا عرضاً مسرحياً مرتجلاً على أنقاض مسرح الرشيد وتابع آخرون من جيل الشباب أيضاً بتقديم عرض مسرحي بعنوان (ألف) محمد الساعات الأخيرة من حياة العلاق والفيلسوف (محمد باقر الصدر) صاحب(فلسفتنا) و (اقتصادنا) وذلك في مسرح الرشيد ايضاً والذي ما زال خربه لحد اليوم .

تشجعت دائرة البناء المسرحي وواصلت نشاطها المسرحي على وجه الخصوص بعد أن استقرت في بناية المسرح الوطني وهنا لابد أن نشيد لجهود الذين تولوا إدارتها من الأيام الأولى للتغير وحتى اليوم لابد أن نقدر خدماتهم ومحاولاتهم للنهوض المسرحي رغم الظروف الصعبة التي سادت العراق .

مسرحية النخلة والجيران

الرسالة العالمية ليوم المسرح العالمي يكتبها جون مالكوفيج

لي الشرف أن تكلفني الهيئة العالمية للمسرح iTi بتوجيه هذا الترحيب احتفالا بالذكرى الخمسين لليوم العالمي للمسرح .

سأوجه ملاحظات مختصرة إلى زملائي ونظرائي العاملين في المسرح .

ليكن عملكم مؤثراً وأصيلاً وليكن عميقاً ومثيراً وداعياً للتأمل . وليساعدنا في الإجابة عن تساؤلنا حول ما يعنيه أن نكون إنسانيين وأن تكون إجابتنا نابعة من القلب وصادرة عن إخلاص وصراحة ولباقة .

لتهزموا الرقابة والفقر والعدمية وسيضطر معظمكم لذلك بالتأكيد. لتكونوا مصانين بالموهبة والحزم كي تعلمونا شيئاً عن نبض القلب رغم جميع التعقيدات وتعلمونا شيئاً عن التواضع وحب الاستطلاع وليكن ذلك من عملكم الحياتي. لينجح أفضلكم ، وليس إلا الأفضل منكم . وفي أقصر اللحظات وأكثرها ندرة ، في تأطير السؤال الأساسي جداً كيف نعيش ؟

ليكن الله في عونكم
جون مالكوفيج

سيرة جون مالكوفيج

هو ممثل ومنتج وكاتب سيناريو ومخرج أمريكي وقبل هذا وذاك هو فنان مسرح بعد اكتشافه المسرح في بداية السبعينيات وفي جامعة الينوى للدولة. أسس عام ١٩٧٦ فرقة (ستيبنولف المسرحية) المشهورة مع (تيري كيني) و (جيف بيري) و (غاري سينيز) .

واشتهر في السينما عندما مثل دور (فالمونت) في فلم (الارتباط الخطر) لستيفن فريزر وبمشاركة (سيفن فريزر) و (ميشيل بفيفر) و (غلين كلوز) وبعد تمثيله ذلك الدور الذي أشر خطوة مهمة من خطوات عمله اشترك في أكثر من سبعين فلماً في الولايات المتحدة وفي الخارج وأظهر تمثيله تنوعاً واسعاً من الأدوار وترشح مرتين لنيل جائزة الاوسكار في (أماكن في القلب) عام (١٩٨٤) ، وفي (على خط النار) (١٩٩٣). وكوفئ عن تمثيله في أفلام أخرى مثل (الحقول القاتلة) و (الارتباط الخطر) و (إن يكون جون مالكوفيج استبدال الطفل).

أخرج عام ٢٠١١ ثالث مسرحية في باريس (الارتباط الخطر) في مسرح الأثيلية بعد نجاحه في اخراج (هستيريا) في (ماريغني) ٢٠٠٢ وفي (الكناري الطيب) في (الكوميديا) ٢٠٠٧ ومنح عن هذه المسرحية جائزة موليير كأفضل أخراج.

في صحبة المعلم .. جاسم العبودي

علي حسين

العبودي

تقاطيع صارمة ممزوجة بحكمة مجربة، شخصية مزيج من سجايا وخصال الأستاذ الأكاديمي والمثقف الوطني، هكذا كنت أرى المعلم جاسم العبودي يوم أن خطوت أولى خطواتي باتجاه أكاديمية الفنون الجميلة وقتها استمعت لتعليقات الطلبة والأساتذة عنه وكلها تحذرني من الاقتراب من هذا الرجل الذي لا يتسامح حتى مع الخطأ البسيط في الحياة فما بالك وأنت الشاب الصغير الذي لا تملك خبرة في الحياة ولم تعرف من المسرح إلا ما جادت به الكتب القليلة التي يتيحها مصروفك اليومي لاقتنائها من مكتبات شارع السعدون، وتقودني خطاي يوما لأن اسأل المعلم عن كتاب حياتي في الفن لستانسلافسكي والذي استعرته من احد الأصدقاء فقد حيرتني فيه جمل كثيرة لم استطع حل لغزها ، وما هي إلا دقائق حتى وجدت نفسي أمام شخص آخر، يغلف الكلمات بروح المرح والنكتة ، وأيضا بجمل لن تغادر ذاكرتي، فلم يكن الحديث عن ستانسلافسكي فقط وإنما عن دور المسرح في حياة الناس، فالمسرح بالنسبة إليه هو فن إشاعة الجمال قال لي : أؤمن أن الفن لا تقوم له قائمة وسط الفوضى والعبث فالفن هو نظام وجمال قائم على التناسق، ثم أضاف : المسرح هو أصعب الفنون على الإطلاق، يمكن للطفل الصغير أن يعزف على آلة الكمان بمهارة ويمكن لصبي أن يرسم لوحة جميلة ولكن لا يستطيع أن يخرج مسرحية إلا وهو إنسان ناضج ، فهذه المهنة تعتمد على إخضاع الآخرين لـ " الأنا " ولا يوجد في رأيي أصعب من أن تؤثر في الآخرين" .

حين اكتشفت أنني أمام كتاب أتنقل بين صفحاته من الفلسفة إلى الفن ، ومن المسرح إلى الفكر، ومن السياسة إلى الاجتماع ، اقرأ بلا تعقيد ولا تكلف، واجده يناقش اعقد الأفكار بلغة بسيطة ويفلسف ابسط الأشياء بلغة عميقة، رأيت امامي فيلسوفا عقلانيا كان يضع كل شيء موضوعا للتساؤل والتأمل ، باحثا عن علة كل ظاهرة ثقافية وفنية ، كانت عقلانيته عصب منهجه النقدي الذي ورثه وقد انتفع من رفقته للشاعر الدكتور محمد مهدي البصير حيث كان يقرأ له ما يطلبه منه، ويستمع إليه مدرسا ومحاضرا، فيزداد معرفة ودراية باللغة العربية وبإلقائها وأدبها، ومن أستاذه البصير اكتسب العبودي قدرة عجيبة على شرح اعقد الأفكار بوضوح نادر مما يؤكد عمق ثقافته ومدى امتلاكه المفاهيم التي كان يعرض لها، متناولا كل ما يقال بالتحليل واضعا اجتهادات الآخرين موضع التساؤل حريصا على بث الثقة في نفوس طلبته ، منذ ذلك اليوم جمعتني صحبة بمعلمي لم تنته إلا بمغادرته العراق إلى أمريكا ورحيله الأبدي فيها، وخلال هذه الصحبة لم أتردد يوما في الخوض في أعمق المسائل مادام هو موجودا أمامي ، لأنني كنت على يقين بأنه سيأخذ بأيدينا إلى شواطئ المعرفة الحقة.

××××

المخرج هو مترجم أفكار الدراما ، تبدأ مدرسة ستانسلافسكي للإخراج بهذه القاعدة إذ يقول: (إن فن الإخراج يبدأ عندما يعبر المخرج عن مضمون المسرحية ويكون مترجما أمينا لأفكارها فالمسرح سيظل دائما حيث ترتبط أفكار المؤلف ومواهبه مع أفكار الممثل ومواهبه لذلك وجب على المخرج أن يكون دائم اليقظة عند فحصه الشخصيات التي أوردها المؤلف ومطابقتها للمواقع) ، وقد شغفت هذه التعاليم لجدتها وحيويتها عددا من مخرجينا الرواد اللذين درسوا فن الإخراج المسرحي خارج القطر ، وكان الفنان الراحل جاسم العبودي احد الذين تأثروا بهذه التعاليم وحاولوا تطبيقها على واقع الفن المسرحي في العراق.

هذا الواقع الذي كان يخضع لطريقة فناننا الرائد حقي الشبلي التي اقتبسها الشبلي من خلال دراسته للفن في باريس ومن خلال تأثره باتجاهات العروض المسرحية المصرية في الثلاثينيات من هذا القرن ، ويصف لنا احد تلامذة الشبلي ومن الذين عملوا معه على طريق الفنان الراحل حقي الشبلي مثل الطريقة التي تعتمد على تصوير المظهر الخارجي للشخصية ، حيث كان الشبلي يعد المظهر ومتغيراته هو منطلق التمثيل وهو الذي يؤثر في السلوك الشخصي ويأتي بعد ذلك تحليل الشخصية وتكوينها النفسي في عملية لاحقة كالمظهر الجسماني والصوتي ، ولذا كان الشبلي يهتم كل الاهتمام بطرازية الحركة وطرازية الإلقاء حيث يتشدد كثيرا في وقف الممثل ووضعيته الجسمانية في الجلوس والوقوف ويؤكد ضرورة مواجهته للمتفرج ، وكان جاسم العبودي الذي عاد من شيكاغو عام ١٩٥٣ بعد حصوله على شهادتي البكالوريوس والماجستير في فن الإخراج المسرحي أول من خالف الشبلي في طريقته تلك فقد اخذ بعد عودته يبشر بتعاليم ستانسلافسكي ومدرسته الواقعية ويدعو إلى الدراسة الشخصية المسرحية وتحليل أعماقها ودراسة المشهد المسرحي بكل مقوماته ومكملاته الفنية الأخرى من ديكور وموسيقى وإنارة إضافة إلى اهتمامه بدراسة العناصر الأساسية للإخراج المسرحي ، هذه العناصر التي تتحدد ضمن الأسس التي وضعها ستانسلافسكي وعدد من تلاميذه وهي تكون في الحركة والتصوير التخيلي والإيقاع والأداء الدرامي الصامت. ولم يكن اهتمام العبودي بدور المخرج في نهضة المسرح العراقي المحلي في تأسيس النهضة المسرحية الحقيقية وفي خلق وعي سياسي وثقافي بين أبناء الشعب إذ كان اختياره للمسرحيات التي أخرجها يخضع لشرطين أساسيين ، الشرط الأول : القيمة الفكرية للنص المسرحي ومدى اقترابه من هموم الناس والشرط الثاني : قيمته الفنية ، ولهذا توزعت خياراته بين نصوص محلية وعربية وعالمية أخضعت لهذين الشرطين (ماكو شغل ، تؤمر بيك ليوسف العاني ، الأسوار لخالد الشواف ، الحقيقة ماتت لعمانؤيل روبلس، موتى بلا قبور لسارتر عطيل، وشكسبير العادلون، لابير كامو البخيل لموليير ، حفلة سمر من اجل خمسة حزيران لسعد الله ونوس، كلهم اولادي لارثر ميلر).

ويضع جاسم العبودي تعريفا للمسرح بكونه محاكاة للواقع ولكن ليس بمعناها الفوتوغرافي والدراما ما هي إلا تعبير عن الأفكار الإنسانية وهي بدورها نتاج ما يسترجع من صور. هذه الصور تسترجع لأن الفنان الخلاق يستعمل صور الخبرة السابقة، صور الحياة التي أعاد تجميعها ومن خلالها يبدع شيئا وهو نتيجة تصوره الخاص ولكنه أساس لا يعدو أن يكون الحياة ذاتها فالغرض من الفن والمسرح كشكل هو إثارة الأحاسيس والأعمال الدرامية مثل هاملت وفاوست والحضيض والشقيقات الثلاث، تثير شعورا حادا لدى المتفرج هذه الإثارة العاطفية يجب ألا تكون مجرد تأثير عابر بل يجب أن تكون قوة العاطفة على الفرد بالغة العمق بحيث يبقى بعد زوال المؤثر المباشر من ضياع دائم يؤدي إلى التفكير وما لم يثر العمل المسرحي هذين العاملين فلا يمكن إدراجه ضمن الأعمال المسرحية فالإثارة التي يحدثها العمل الفني لم تعط الفرح ما يفكر فيه ولكنه أيقظ تجاربه الذاتية وتصوراته وأفكاره عن الحياة ودفعتها إلى دائرة الإدراك والعمل ، هذا للفهم العملية الفنية لدى العبودي انعكس بشكل واضح على طبيعة عمله في المسرح فنجده قبل أن يقرر البدء مع الممثل المعني واضعا أمام هذا الممثل بعض الخصائص الفردية والإبداعية المميزة له بالذات ومن خلال هذه الجلسات ، يضع العبودي يده على الخصائص الفردية والمميزة للممثل التي تؤثر في هذا الشكل او ذاك في عمله.

ويرى جاسم العبودي أن المخرج هو سيد المسرح الذي تخضع لديه العملية الخارجية إلى ثلاث مراحل الأولى تبدأ بالمخرج المترجم وهو الذي يوضح كيف يكون التمثيل ويمكن أن نسميه بالمخرج الممثل وهو الذي يسهل المشاكل المتعلقة بالتكوينات الفنية عن الممثل وثانية المخرج العاكس وهو الذي يعكس للممثل الإحساسات والانفعالات ويعيدها إليه ليقوم الممثل بتمثيلها وعلى المخرج أن يتعرف بدقة على إمكانية الممثل وان يعطيه من نفسه في أثناء العمل ما يعينه على التعمق في دوره والأخذ بناصيته ثم المخرج منظم العرض المسرحي وهو الذي يتحمل كل أعباء المسرحية وينظر إلى كل مرحلة فيها نظرة تمعن ويبذل كل جهوده لربط شخصيات المسرحية في وحدة فنية متكاملة مضيفا إليها عنصر الإنارة والديكور والموسيقى ، وقد اخذ الديكور حيزا مهما في عمل جاسم العبودي إذ عد احد العناصر المهمة في المسرحية وما نعنيه ليس الديكور الجامد الثابت وإنما الديكور المتحرك بالألوان والتشكيلات التي تخضع لضرورات الفعل المسرحي. لقد حرص جاسم العبودي منذ البداية على تثبيت مجموعة من القيم الجديدة في مسرحنا العراقي أولها : أن المسرح ما هو إلا سلاح متقدم وفعال ينبغي لنا أن نتقن ممارسته ونحسن استعماله خدمة لقضايا الأمة والشعب، وثانيها : أن المخرج المسرحي هو عقل المسرح وذهنيته وسيد نظريته، وثالثها احترام عمل الممثل لكونه الشخصية الأولى التي تبدأ بوضع البذرة الأولى في العمل.

××××

لقد كان جاسم العبودي يرى أن قيمة المخرج الواقعي الحديث تكمن في قدرته على عكس المظهر في استمرار الحياة الواقعية بشكل فني جميل ومؤثر، يكتب المعلم في الصفحة الأخيرة من حياته : " كنت أتمنى لو أنني مثل مايكل انجلو وأكون نحاتا ، أن أتمتع بسلطة مطلقة على الصخر، فأشكله كيفما أشاء، كنت أتمنى أن أحول خشبة المسرح إلى معرض للفن يسرق النظر قبل أن يستولى الممثلون بكلماتهم على حواس الناس" اليوم نتذكر تلك الروح العذبة ، النقدية حد التجريح ، والمرحة في أوقات الصفاء، الراصد لأصعب لحظات الحياة وأدقها لتكون موضوعا لمسرح عشقه حد التماهي.

مشهد احد عروض العبودي